النّون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظّلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ. وكذلك ننجي المؤمنين﴾.

إنّ يونس عليه السّلام لو لم يسبّح الله تعالى ويذكره ذكراً كثيراً ويتضرّع إليه جلّ وعلا ويبتهل لكان بطن الحوت قبراً له عليه السّلام، ولبقي في بطن الحوت إلى أن يبعث الله تعالى الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء.

ألقى الحوت بإذن الله تعالى يونس عليه السّلام بالسّاحل في الأرض الفضاء الّتي ليس فيها بناءٌ ولا نبات. وكما تداركت رحمة الله تعالى يونس عليه السّلام في بطن الحوت فلم يمسّ بسوء، تداركته رحمة الله تعالى بالعراء حيث كان عليه الصّلاة والسّلام عليلاً كالصّبيّ الحديث الولادة الشّديد الحاجة للغذاء والكساء.

أنبت الحقّ جلّ وعلا الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء شجرة قرعٍ، سترت يونس عليه السّلام بورقها الكثيف النّاعم، وحمته بإذن الله تعالى من الذّباب أن يدنو منه عليه السّلام، وكان ثمرها برحمة الله تعالى الطّعام الّذي رزقه الحقّ جلّ وعلا يونس عليه السّلام. والمعروف أنّ من صفات القرع أنّه يؤكل نيئاً، لبّاً وقشرا، وأنّه غذاءٌ جيّد.

عافى الله سبحانه وتعالى يونس عليه السّلام بعد أن أنجاه، وأرسله إلى مائة ألف من البشر بل يزيدون، يدعوهم إلى دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وإلى إفراده عزّ وجلّ بالعبادة. ويصحّ أن يكون المرسل إليهم الآن غير المرسل إليهم من قبل. ويصحّ أن يكونوا هم. وكلا الفريقين آمن بفضل الله تعالى وأسلم لله تعالى ربّ العالمين.

وحينما نتبيّن وجه الشّبه القويّ بين نهاية آخر آيات القسم هنا وآخر الآية الكريمة من سورة يونس عليه السّلام، يصحّ اتّخاذ وجه الشّبه هذا دليلاً على أنّ القوم في المرّة الآخرة هم القوم في المرة الأولى، والله تعالى أعلم. جاء في سورة الصّافّات القول: ﴿فآمنو افمتّعناهم إلى حين﴾ وجاء في سورة يونس[1] القول:

---

(١) الآية ٩٨.

﴿فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين﴾.

لقد متّع الله تعالى قوم يونس عليه السّلام بحياتهم حتّى انقضاء آجالهم وموتهم.

(٥)

«يصرّ كفّار مكّة على كفرهم وزعمهم أنّ الملائكة بنات الله ، وتعلن الملائكة أنّهم عباد الله، فأعرض يا محمد عن الكافرين وسبّح بحمد ربّك»

الآيات (١٤٩ ـ ١٨٢)

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ
وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ
﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ
نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

فاستفتهم : فسل يا محمّد مشركى قريش الّذين قالوا الملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها(١).

ألربّك البنات ولهم البنون : لأنّ مشركى قريش قالوا لله البنات ولهم البنون(٢).

أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون: أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين الملائكة بنات الله خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إناثاً فشهدوا هذه الشّهادة ووصفوا الملائكة بأنّها إناث(٣).

مِنْ إفكهم : من كذبهم(٤).

ولد الله : أي صدر منه الولد(٥).

(١) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٧.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧

أصطفى : بفتح الهمزة للاستفهام، واستغنى بها عن همزة الوصل فحذفت، أي أختار(١).

مالكم كيف تحكمون : بئس الحكم تحكمون أيّها القوم أن يكون لله البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضون البنات لأنفسكم فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم(٢).

أفلا تذكّرون : أفلا تتدبّرون ما تقولون فتعرفوا خطأه فتنتهوا عن قيله(٣).

أم لكم سلطانٌ مبين : أم لكم حجّة تبين صحّتها لمن سمعها بحقيقة ما تقولون(٤).

فأتوا بكتابكم : فأتوا بحجّتكم من كتاب جاءكم من عند الله بأنّ الّذي تقولون من أنّ له البنات ولكم البنين كما تقولون(٥).

إن كنتم صادقين : أنّ لكم بذلك حجّة(٦).

وجعلوا بينه وبين الجنّة نسبا : الجنّة : الملائكة لاجتنانهم عن الأبصار(٧) نسباً : بقولهم الملائكة بنات الله(٨).

ولقد علمت الجنّة إنّهم لمحضرون: ولقد علمت الملائكة أنّ قائلى ذلك لمحضرون للنّار يعذّبون فيها(٩).

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٨.

(٧) الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩.

(٨) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩.

(٩) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩. والجلالين.

يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يسأل في إنكار كفّار مكّة الّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله وعبدوهم، والّذين يؤثرون الذّكور لأنفسهم، فإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً من خبر السَّوْء وهو ممتلىءٌ هماً كاظمٌ غمّه وحزنه: كيف رَضُوا لله تعالى ما لا يرضون لأنفسهم؟ وكيف يجعلون لله تعالى البنات بقولهم: إنّ الملائكة بنات الله، ويجعلون لأنفسهم الذّكور الأسمى والأسنى حسب زعمهم؟.

ولا يخفى ما في هذا الزّعم من أخطاء وأخطار. إنّهم يشركون مع الله تعالى غيره بعبادة الملائكة، وبذلك يتورّطون في الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى. وإنّهم يزعمون أنّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ ولداً، وهم الملائكة، واتّخذ صاحبة. تعالى الله عما يقول الظّالمون علواً كبيرا.

أم أنّ كفّار مكّة زعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى لأنّهم كانوا شاهدين وحاضرين حينما خلق الله تعالى الملائكة. إنّ كفّار مكّة إنّما يهرفون بما لا يعرفون.

ألا إنّ مِنْ كذب كفّار مكّة أنّهم يقولون إنّ الله تعالى اتّخذ ولداً وصدر منه الولد في هيئة الملائكة بنات الله. وإنّهم لكاذبون.

هل اختار الله تعالى البنات وآثرهنّ وفضّلهنّ على البنين فاتّخذ الملائكة إناثاً وبناتٍ حسب زعم المشركين! ما الّذى دهاكم أيّها المشركون فقلتم هذا الكذب وادّعيتم هذا الهراء! كيف تحكمون هذا الحكم الجائر الدّالّ على تعطيلكم نعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليكم! أفلا تتذكّرون هذا الخطأ الشّنيع فتقلعوا عنه! أم أنّ لكم في هذا الادّعاء وعلى هذا الزّعم سلطاناً مبيناً وحجّةً تبين لمن تدبّرها أنّ قولكم الحقّ وزعمكم الصّدق. إن كانت عندكم الحجّة في كتابٍ موحًى به من الله تعالى بأنّ الملائكة بنات الله تعالى فأتوا بهذه الحجّة، وهيهات، وهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بأنّ عندكم حجّة وبرهاناً على ما تزعمون وتدّعون.

ويلاحظ بشأن القول: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ مجيء جملة: ﴿فأتوا﴾ والمعروف أنّ جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد أو الاستحالة. وإنّ جملة: ﴿فأتوا﴾ تومىء إلى ذلك البعد وتلك الاستحالة.

وجعل المشركـون بين الحقّ جلّ وعلا وبين الملائكة نسبـاً، وذلك بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعـالى. ولقـد علمت الملائكة أنّ المشـركين الزّاعـمين أنّ الملائكة بنات الله تعالى لمحضرون يوم القـيامة لنار جهنّم يعذّبون فيهـا بسبب افترائهم على الله تعالى الكذب.

تنزيهاً لله تعالى عمّا يدّعى هؤلاء الكاذبون من نسبة الولد والصّاحبة إلى الله تعالى.

والمعروف أنّ جملة : ﴿يصفون﴾ في كلّ القرآن الكريم بمعنى يكذبون.

إلاّ عبـاد الله تعالى الّذين اصطفاهـم واجتبـاهم وأخلصوا العبـادة لله تعالى فإنّهم في رحمة اللهتعالى داخلون، وعن العذاب مبعدون.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾

مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

ما أنتم عليه : ما أنتم على ما تعبدون من دون الله(١).

بفاتنين : بمضلّين أحداً(٢) من فتنت أفتن وذلك لغة أهل الحجاز(٣).

إلاّ من هو صالى الجحيم : إلاّ أحداً سبق في علمى أنّه صالى الجحيم(٤).

فإنّكم أيّها المشركون وما تعبدون من دون الله تعالى من معبود زائف، ما أنتم بفاتنين على معبودكم الزّائف أحداً، وما أنتم بضالّين به من أحد، إلاّ من سبق في علم الله تعـالى أنّه سـيكون من الضّالّـين المشركين الّذين سـوف يدخلون جـهنّم، ويصلون نارها.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٠.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٦٩.

إنّ هؤلاء المشركين الّذين أرشدهم المصطفى ﷺ إلى طريق الهدى وهداهم إلى الصّراط المستقيم أصرّوا على رفض دعوة الحقّ وعلى الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى. وإنّ علم الله تعالى الّذى ليس الزّمن جزءاً منه قد سبق إلى ما انتهى إليه المشركون لاحقاً من دخول النّار وسوء المصير والعياذ بالله تعالى. إنّ الله تعالى يعلم ما كان ويكون وسيكون، ولا يخفى عليه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وَمَا مِنَّآ إِلَّا
لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

وما منّا إلاّ له مقامٌ معلوم : وما منّا معشر الملائكة إلاّ من له مقامٌ في السّماء معلوم(١) يعبد الله فيه لا يتجاوزه(٢).

وإنّا لنحن الصّافّون : يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل ملائكته : وإنّا لنحن الصّافّون لله لعبادته(٣) أي نقف صفوفاً في الطّاعة(٤).

وإنّا لنحن المسبّحون : المنزّهون الله عمّا لا يليق به(٥) أي نصطفّ فنسبّح الرّبّ ونمجّده ونقدّسه وننزّهه عن النّقائص، فنحن عبيدٌ له، فقراء إليه، خاضعون لديه(٦) المصلّون له(٧) وقال ابن عبّاس ومجاهد : ﴿وما منّا إلاّ له مقامٌ معلوم﴾ الملائكة. ﴿وإنّا لنحن الصّافّون﴾ الملائكة ﴿وإنّا لنحن المسبّحون﴾ الملائكة يسبّحون

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٠.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧١.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٩.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٩.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧١ وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٩.

الله عزّ وجل(١).

الآيات الكريمات على لسان الملائكة الأطهار، الّذين زعم المشركون أنّهم بنات الله تعالى وعبدوهم.

إنّ الملائكة الأطهار يقولون : ما منّا من أحد إلاّ له مقامٌ معلومٌ لا يتجاوزه يعبد الله تعالى فيه وحده لا شريك له، فنحن عبيدٌ لله تعالى. وإنّا لنحن الواقفون صفوفاً في الصلاة، الصّافّون نفوسنا للعبادة. وإنّا لنحن المسبّحون الله تعالى، المنزّهونه جلّ وعلا عمّا لا يليق به.

وبذلك تكون الآيات الكريمات الثّلاث على ألسنة الملائكة الأطهار.

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

وإنْ : مخففة من الثّقيلة(٢).

وإنّ كفّار مكّة كانوا يقولون قبل بعثة محمّد بن عبدالله ﷺ وإرساله إليهم : لو أنّ عندنا كتاباً من جنس الأوّلين كالتّوراة والإنجيل، يذكّرنا أمر الله تعالى، ويهدينا إلى سبيل الرّشاد، لكنّا عباد الله تعالى المصطفين الأخيار الّذين نخلص العبادة لله تعالى وحده دون سواه. فلمّا بعث الله تعالى محمّداً ﷺ بين ظهرانَيْهم، وأوحى إليه القرآن الكريم الأشرف من كلّ الكتب السّماويّة، كفروا بهذا الكتاب العزيز وبالرّسول الكريم الّذى أوحى الله تعالى إليه هذا الكتاب العزيز.

إنّ كفّار مكّة سوف يعلمون العاقبة السّيّئة لكفرهم بالقرآن الكريم وتكذيبهم خير الأنام محمّداً ﷺ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٩.

(٢) الجلالين.

وإلى هذه المعاني أشار قولُه تعالى(١) : ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم تُرْحمون. أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنّا أُنْزِل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم. فقد جاءكم بيّنةٌ من ربّكم وهدىً ورحمة. فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها. سنجزى الّذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يَصْدِفون﴾ وقولُه تعالى(٢) : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذيرٌ ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم فلمّا جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلاّ نفورا. استكباراً في الأرض ومكر السّيّىء ولا يحيق المكر السّيء إلاّ بأهله. فهل ينظرون إلاّ سنّة الأوّلين. فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾.

وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : ولقد سبق منّا القول لرسلنا، أي مضى بهذا منّا القضاء والحكم في أمّ الكتاب(٣).

إنّهم لهم المنصورون: وهو أنّهم لهم النُّصرة والغلبة بالحجج(٤).

وإنّ جندنا لهم الغالبون : وإنّ حزبنا وأهل ولايتنا لهم الغالبون. يقول :

---

(١) سورة الأنعام ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) سورة فاطر ٤٢و٤٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣...

لهم الظّفر والفلاح على أهل الكفر بنا والخلاف علينا[1] في الدّنيا والآخرة[2] وإن لم ينتصر بعضٌ منهم في الدّنيا ففي الآخرة[3].

الآيات الكريمات الثّلاث في تسلية المصطفى ﷺ. يقول الحقّ جلّ وعلا: ولقد سبقت كلمتنا في أمّ الكتاب لعبادنا المرسلين، وهي أنّهم هم المنصورون على الكافرين بالحجج البيّنات والآيات الواضحات. وإنّ جند الله تعالى وحزبه وأولياءه لهم الغالبون للكافرين في الدّنيا والآخرة. وقد لا يتحقّق في الدّنيا النّصر لهم على الأعداء ولكنّه سوف يتحقّق لهم ذلك يوم القيامة بين يدي الله تعالى قيّوم السّماوات والأرض.

ومن الآيات الكريمات الّتي عمّقت هذه المعاني قوله تعالى[4]: ﴿كتب الله لأغلبّن أنا ورسلي. إنّ الله قويٌّ عزيز﴾ وقوله تعالى[5]: ﴿إنّا لننصر رسلنا الّذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

فتولّ عنهم: فأعرض عنهم[6].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠.

(٣) الجلالين.

(٤) سورة المجادلة. ٢١

(٥) سورة غافر ٥١.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

حتّى حين : تؤمر فيه بقتالهم[١].

وأبصرهم فسوف يبصرون : وانظرهم[٢] وارتقب ماذا يحلّ بهم من العذاب والنّكال على مخالفتك وتكذيبك[٣] فسوف يرون ما يحلّ بهم من عقابنا[٤].

فإذا نزل بساحتهم : فإذا نزل بهؤلاء المشركين المستعجلين بعذاب الله العذاب. والعرب تقول : نزل بساحة فلان العذاب والعقوبة، وذلك إذا نزل به. والسّاحة هي فناء دار الرّجل[٥] والسّاحة الدّار[٦].

فساء صباح المنذرين : فبئس صباح القوم الّذين أنذرهم رسولنا نزول ذلك العذاب بهم فلم يصدّقوا به[٧].

وتولّ عنهم حتّى حين. وأبصر فسوف يبصرون : كرّر تأكيداً لتهديدهم وتسليةً له ﷺ[٨].

فأعرض عنهم يا محمّد حتّى الوقت الّذى تؤمر فيه بقتالهم. والمعروف أنّ الإذن بالقتال كان في السّنة الثّانية من الهجرة[٩] وانظرهم يا محمّد وارتقب ما يحلّ بهم من العذاب والنّكال لتكذيبك والصّدّ عن دين الإسلام الّذى بعثك الله تعالى به فسوف يرون ما يحلّ بهم من العذاب ويندمون بعد فوات الأوان.

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهاني «بصر» ١/ ٦٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٤.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٣.

(٨) الجلالين.

(٩) انظر هنا نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين للشّيخ محمّد الخضرى ص ١١٢ هامش ٧٦ وفيه أنّ الإذن بالقتال كان لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر صفر في السّنة الثانية من الهجرة.

والعجيب في أمر هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث أنّهم على سبيل الاستهزاء يستعجلون قيام السّاعة وحلول العذاب بهم. وإلى هذا الفريق من النّاس أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الشّورى[1] : ﴿يستعجل بها الّذين لا يؤمنون بها. والّذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنّها الحقّ. ألا إنّ الّذين يمارون في السّاعة لفي ضلالٍ بعيد﴾.

إنّ عذاب الله تعالى إذا نزل بالقوم وحلّ بهم فبئس صباح القوم الّذين أنذرهم رسولهم العذاب فكذّبوه. ثبت في الصّحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبّح رسول الله ﷺ خيبر. فلمّا خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا يقولون : محمّدٌ والله، محمّدٌ والخميس[2] فقال النّبيّ ﷺ: الله أكبر خربت خيبر. إنّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين[3].

وتأكيداً للتّهديد والوعيد تأتي هاتان الآيتان الكريمتان الشّديدتا الشّبه بالسّابقتين. قال تعالى: ﴿وتولّ عنهم حتّى حين. وأبصر فسوف يبصرون﴾ إنّ على المصطفى ﷺ أن يُعْرِض عن المشركين حتّى يقضي الله تعالى فيهم بأمره، كما أنّ عليه ﷺ أن يبصرهم ويرقبهم فسوف يرون العذاب الّذى يحلّ بهم مستقبلاً بإذن الله تعالى.

---

(١) الآية ١٨.

(٢) الخميس الجيش لأنّه يتألّف من خمس فرق.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠.

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سبحان ربّك : يا محمّد(١).

يصفون : يكذبون(٢).

ربّ العالمين : ربّ الثّقلين الجنّ والإنس(٣).

تُخْتَمُ السّورة الكريمة بتنزيه الله تعالى ربّ محمّد ﷺ وكلّ إنسان، وربّ العزّة والغلبة والجبروت، عمّا ألصق به جلّ وعلا الظّالمون الكاذبون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته جلّ وعلا. وسلامٌ من الله تعالى وطمأنينةٌ وأمَنَةٌ على المرسلين الّذين ذكرتهم السّورة الكريمة والذّين لم تذكرهم، الّذين قصّ القرآن الكريم علينا شيئاً من أنبائهم والّذين لم يقصص. والحمد لله تعالى ربّ العالمين، الجنّ والإنس وكلّ حيّ وشيء، والثّناء كلّه لله تعالى مربّي عباده بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة المستحقّ أن يُعْبَدَ وحده دون سواه، وأن يُحْمَدَ في الأولى والآخرة، لا ربّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه.

«ولمّا كان التّسبيح يتضمّن التّنزيه والتبرئة من النّقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أنّ الحمد يدلّ على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التّنزيه من النّقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن. ولهذا قال : ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾»(٤).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٧/ ٤١.

تعقيب

نودّ أن نشير في هيئة نقاط إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة.

١ ـ سورة الصّافّات من المكيّ من القرآن الّذى نزل على النّبيّ ﷺ قبل الهجرة إلى المدينة المنورة(١).

٢ ـ عدد آيات السّورة الكريمة مائةٌ واثنتان وثمانون آية(٢). وعدد كلماتها ثمانمائة وستّون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وستّةٌ وعشرون حرفا(٣).

٣ ـ سورة الصّافّات المكيّة الكريمة تشتمل على الموضوعات التّى يشتمل عليها المكّيّ من القرآن، وتتّسم بالصّفات الّتى يتّسم بها المكّيّ من القرآن. ومن الموضوعات البارزة في السّورة الكريمة، توحيد الله تعالى. والبعث بعد الموت، وتسليةٌ المصطفى ﷺ، بطريقٍ غير مباشر، وذلك بقصّ الحقّ جلّ وعلا من أنباء كوكبةٍ من الرّسل الكرام، وهم نوحٌ وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين، وتسليةُ المصطفى ﷺ بطريقٍ مباشر، وذلك في مثل قول الحقّ جلّ وعلا(٤) : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنّهم لهم المنصورون. وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾.

ومن الصّفات الّتى تتّسم بها الآيات الكريمات الميل إلى القِصر الملحوظ، هذا إلى صرامة المعاني، وعنف الأسلوب، في أثناء الحديث عن المشركين، الّذى يشغل حيّزاً كبيراً من السّورة الكريمة، والّذى يبيّن صفات المشركين المناوئين للتّوحيد، وللرّسول الكريم، والقرآن العظيم، المنكرين للبعث.

٤ ـ موضوع البعث بعد الموت أهمّ موضوعات السّورة الكريمة وأكبرها؛

---

(١) الإتقان ١/ ٤٣ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٣/ ٣٩ مطبوع بهامش تفسير الطّبرى للحسن بن محمّد النيسابوري

(٢) المصحف الشّريف. وعدد الآيات في تفسير غرائب القرآن ١٨١ آية.

(٣) تفسير غرائب القرآن ٢٣/ ٣٩.

(٤) سورة الصهافّات ١٧١ ـ ١٧٣.

ويكفى أن يقال أنّ الآيات الكريمات من الحادية عشرة إلى الرّابعة والسّبعين، وعدد الآيات الكريمات أربعٌ وستّون آية، أي أكثر من ثلث السّورة الكريمة، تتحدّث في حيّز واحد في ملابسات البعث بعد الموت ويوم القيامة. وكلّ موضوعات السّورة الكريمة وآياتها وراء ذلك تخدم موضوع البعث بعد الموت، ووجوب عمل الصّالحات في الدّنيا، كي يثاب الإنسان في الآخرة. إنّه ينبغى أن يتحقّق شرطان اثنان كي يتفضّل الحقّ جلّ وعلا بقبول الأعمال الصّالحة. وهذان الشّرطان ترجمةٌ لشهادة التّوحيد، شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله. أمّا الشّرط الأوّل فهو إخلاص العمل لله تعالى، وعدم قصد أيّ مخلوق بهذا العمل. وهذا الشّرط متعلّقٌ بشهادة أنّه : «لا إلّه إلاّ الله» وأمّا الشّرط الآخر فهو أن يكون العمل صالحاً بمقياس الإسلام، وذلك بالاستمساك بهدي القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ. وهذا الشّرط متعلّقٌ بشهادة أنّ محمّداً رسول الله.

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم لا يفردون الله تعالى بالعبادة، بل يشركون مع الله تعالى آلهةً أخرى كالأصنام والأوثان والملائكة الّذين يزعمون أنّهم بنات الله تعالى. وهكذا يتورّط المشركون في مجموعة من الأخطاء والأخطار في حقّ الذّات العليّة. إنّهم يتورّطون في الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك في حق من مات مشركاً، ويزعمون انّ الله تعالى اتّخذ ولداً، ولكنّه اصطفى الملائكة، أي البنات اللّاتى يفضّل المشركون الذّكور عليهنّ فيختارون لأنفسهم الأسمى! ومعنى اتّخاذ الولد ببساطة اتّخاذ الصّاحبة. تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علواً كبيرا. وممّا جاء في السّورة الكريمة متعلّقاً بقضيّة التوحيد والنّهى عن الشّرك قولُ الحقّ جلّ وعلا(١) : ﴿إنّ إلهكم لواحد. ربُّ السّماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا (٢) : ﴿إنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون. ويقولون أئنّا لتاركو آلهتنا لشاعرٍ مجنون. بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا(٣) : ﴿فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم

(١) سورة الصّافّات ٤و٥.

(٢) سورة الصّافّات ٣٥ـ٣٧.

سورة الصّافّات ١٤٩ـ١٥٩.

شاهدون. ألا إنّهم من إفكهم ليقولون. ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين. مالك كيف تحكمون. أفلا تذكّرون. أم لكم سلطانٌ مبين. فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجنّة نسبا. ولقد علمت الجنّة إنّهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون﴾. وقول الحقّ جلّ وعلا(١) : ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

والمشركون يكفرون بكلٍّ من الرّسول العظيم ﷺ والقرآن الكريم. وسبق أن مرّ بنا في الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين اتّهام المصطفى ﷺ بأنّه شاعرٌ مجنون، وذلك معناه أنّ القرآن الكريم ضربٌ من الشّعر حسب زعمهم وكذبوا. وإلى طلب المشركين أن يكون عندهم كتابٌ سماويّ من جنس الكتب السّماويّة الأخرى كالتّوراة والإنجيل وإلى كفرهم بالقرآن الكريم أشار قوله تعالى(٢) : ﴿وإن كانوا ليقولون. لو أنّ عندنا ذكراً من الأوّلين. لكنّا عباد الله المخلَصين. فكفروا به فسوف يعلمون﴾.

إنّ من متعلّقات الإيمان بالبعث إفراد الله تعالى بالعبادة وتصديق كلٍّ من الرّسول العظيم ﷺ والقرآن الكريم.

٥ ـ تحدّثت السّورة الكريمة في أوّلها وفي آخرها عن الملائكة الكرام حديثاً مستفيضاً. ومحور الحديث عن الملائكة يتعلّق بقضيّة التّوحيد. إنّ الملائكة عبادٌ لله تعالى مكرمون وليس كما يزعم المشركون أنّهم بنات الله تعالى ويعبدونهنّ. وممّا جاء عن الملائكة قول الحقّ جلّ وعلا في أوّل السّورة الكريمة(٣) : ﴿والصّافّات صفّا. فالزّاجرات زجراً. فالتّاليات ذكرا﴾ وممّا جاء على لسان الملائكة قول الحقّ جلّ وعلا(٤) : ﴿وما منّا إلاّ له مقامٌ معلوم. وإنّا لنحن الصّافّون. وإنّ لنحن

---

(١) سورة الصّافّات ١٨٠ـ١٨٢.

(٢) سورة الصّافّات ١٦٧ـ١٧٠.

(٣) سورة الصّافّات ١ـ٣.

(٤) سورة الصّافّات ١٦٤ـ١٦٦.

المسبّحون﴾ وممّا يلاحظ من صفات الملائكة في الآيات الكريمات أنّهم يكونون صفوفاً في عبادة الله تعالى، ويتلون الذّكر الحكيم والوحي الكريم، ويسبّحون الله تعالى ويذكرونه ذكراً كثيرا.

وإنّ حديث سورة الصّافّات الكريمة عن الملائكة في أوّلها وآخرها حديثاً مستفيضاً ممّا تختصّ به السّورة الكريمة بين سور القرآن الكريم. ومِنْ ألطف ما يمكن الإيماء إليه في مجال التّشابه بين الحديث عن الملائكة في أوّل السّورة الكريمة وآخرها تكرار الحديث عن الصّفة الّتى يتّسم بها اسم السّورة الكريمة. إنّ الملائكة تصفّ نفوسها في عبادة الله تعالى. جاء في الآية الكريمة الأولى القول: ﴿والصّافات صفّا﴾ وجاء في الآية الكريمة الخامسة والسّتّين بعد المائة على لسان الملائكة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وإنّا لنحن الصّافّون﴾.

٦ ـ بالإضافة إلى حديث السّورة الكريمة عن الملائكة ذوات العلاقة الوثيقة بجوّ السّماء تتحدّث السّورة الكريمة عن عدد من الأمور ذوات العلاقة بهذا الجوّ العلويّ والمحيط السّماويّ. إنّ السّورة الكريمة تتحدّث عن السّماوات، وما بين السّماوات والأرض. وعن مشارق الشّمس ومغاربها، ومشارق كلّ نجمٍ وكوكب ومغاربها، وعن تزيين الحقّ جلّ وعلا السّماء الدّنيا بزينة الكواكب، ولأجلِ حفظها من كلّ شيطانٍ مارد عات خبيث. فلا يُسْمَح للشّياطين أن يُصْغُوا إلى ملائكة السّماء، الّذين لديهم بإذن الله تعالى شيءٌ يسيرٌ من الغيب يتكلّمون به بينهم. وربّما أراد الشّياطين استراق السّمع فَيُقذفون بالشّهب والكواكب المضيئة من كلّ جوانب السّماء لأجل دحرهم وطردهم. ولهم عذابٌ أليم. وربّما استطاع الشيطان قبل أن يثنيه الشّهاب بضوئه أن يلقي الكلمة المسروقة إلى الشّيطان الّذى يليه ثمّ الّذى يليه إلى أن تصل إلى السّاحر أو الكاهن فيضيف إلى الكلمة الواحدة ألف كَذْبة. إنّ كلّ هذه المعانى جاءت في الآيات الكريمات العشر الأُوَل.

ثمّ يكون الحديث في آخر السّورة الكريمة عن الملائكة الكرام الّذين زعم مشركو مكّة ومشركو العرب أنّهم بنات الله تعالى وعبدوهم، وذلك في الآيات الكريمات ١٤٩-١٦٦. قال عزّ من قائل[1]: ﴿فاستفتهم ألربّك البنات ولهم

---

(١) سورة الصّافّات ١٤٩-١٦٦..

البنون. أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون. إلا إنهّم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنّهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكّرون. أم لكم سلطانٌ مبين. فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجنّة نسبا. ولقد علمت الجنّة إنهم لمحضرون. سبحان الله عمّا يصفون. إلاّ عباد الله المخلصين فإنّكم وما تعبدون. ما أنتم عليه بفاتنين. إلاّ من هو صالى الجحيم. وما منّا إلاّ له مقامٌ معلوم. وإنّا لنحن الصّافّون. وإنّا لنحن المسبّحون﴾.

ومِمّا له عَلاقةٌ بجوّ الشّياطين زعم كفّار مكّة أنّ ما جاء به محمّد من القرآن الكريم سحرٌ مبين، يبين لكلّ من تأمّله وتدبّره أنّه ضربٌ من السّحر الّذى له عَلاقةٌ بقوىً شرّيرةٍ خفيّة خبيثة، تستطيع أن تفرّق بين المرء وأعزّ أحبّائه. قال تعالى(١): ﴿وقالوا إن هذا إلاّ سحرٌ مبين﴾ومِمّا له عَلاقةٌ كذلك بجوّ الشّياطين زَعْمُ كفّار مكّة أنّ محمّداً ﷺ شاعرٌ، فالقرآن الكريم حسب زعمهم شعر، وأنّ محمّداً ﷺ مجنونٌ قد سيطرت على قواه العقليّة قوىً خارجيّة خفيّةٌ شرّيرة. قال تعالى(٢): ﴿ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون. بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين﴾.

ممّا سبق نستطيع أن نذهب إلى أنّ سورة الصّافّات المكّيّة الكريمة يختصّ أوّلها وآخرها من بين سائر سور القرآن الكريم بالحديث عن الجوّ العلويّ وبخاصّة الملائكة الكرام الّذين لا يستكبرون عن عبادته عزّ وجلّ ولا يقصّرون في العبادة، والّذين يسبّحون بحمد ربّهم آناء اللّيل وأطراف النّهار لا يتعبون ولا يسأمون. ومن صميم الحديث عن الملائكة الكرام النّعي على المشركين الّذين عبدوهم والّذين زعموا كذباً وزوراً أنّهم بنات الله تعالى: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾.

٧ ـ لقد اختصّ صدر سورة الصّافّات الكريمة وعجزها من بين سائر سور القرآن الكريم بالحديث المستفيض عن الجوّ العلويّ، وبخاصّة الملائكة الكرام، خدمةً لقضيّة التّوحيد ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة. وبعد صدر السّورة الكريمة جاء

---

(١) سورة الصّافّات ١٥.

(٢) الآية ٣٦و٣٧.

الحديث في الموضوع الرّئيس وهو البعث بعد الموت. واختصّت السّورة الكريمة بالحديث المستفيض عن موقف كلٍّ من الكافرين والمؤمنين في الحياة الدّنيا من البعث، وحال كلٍّ من الفريقين يوم القيامة، والحوار المستفيض بين أهل النّار الّتى يعذّبون فيها، وبين أهل الجنّة الّتى يتنعّمون فيها. وهذا الموضوع الرّئيس جاء الحديث عنه في أربعٍ وستّين آية كريمة، أي أكثر من ثلث السّورة الكريمة، من الآية الكريمة الحادية عشرة حتّى الآية الكريمة الرّابعة والسّبعين.

وليس بخافٍ أنّ صدر السّورة الكريمة وعجزها، وأنّ الحديث المستفيض عن كوكبةٍ من الرّسل الكريم يهدف إلى حمل كفّار مكّة ومن شاكلهم على الإيمان بالبعث بعد الموت، والعمل ليوم القيامة المجموع له النّاس المشهود كي يفوزوا بدخول جنّات النّعيم.

إنّ الحديث المستفيض عن أحوال الكافرين بالبعث والمؤمنين به في الأولى والآخرة، والحوار بين الفريقين يوم القيامة، وبين أفراد كلّ فريق، ممّا تختصّ به سورة الصّافّات الكريمة بين سور القرآن الكريم، بشأن موضوعها الرّئيس البعث بعد الموت.

٨ ـ كما اختصّت سورة الصّافّات الكريمة بشأن صدرها وعجزها وموضوعها الرّئيس بصفات، اختصّ قصّ السّورة الكريمة من أنباء كوكبة من الرّسل الكرام بصفاتٍ خاصّة به من بين سور القرآن الكريم. ونستطيع أن نقول في هذا الشّأن: إنّ سورة الصّافّات الكريمة في قصّها من أنباء المرسلين تبرز نعم الله تعالى على هؤلاء المصطفَيْن الأخيار، ومن هذه النّعم ما هو مشتركٌ بينهم، ومن هذه النّعم ما هو خاصٌّ بكلٍّ منهم. ولا يخفى الأثر الحسن المضاعف لهذا القصص في تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ. إنّ في القَصص ذاته تثبيتاً لفؤاده ﷺ. وإنّ في تبيين الفضل من الله تعالى المشترك بينهم، والخاصّ بكلٍّ منهم، مزيد تثبيت لفؤاده ﷺ في هذه الفترة المبكرّة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة قبل الهجرة.

لقد كان النّصر حليف كلّ المرسلين في النّهاية، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه. ونستطيع أن نجمل النّعم المشتركة بينهم بأنّ الله تعالى قد ترك على

كلّ واحدٍ منهم الثّناء العاطر والذّكر الحسن لدى كلّ الأمم التّاليةً من أتباع النّبيّين والمرسلين اللّاحقين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وسلامٌ من الله تعالى وأمنٌ وطمأنينة على كلّ واحدٍ منهم في الأولى والآخرة، ومن العالمين، فكلٌ منهم يسلّم عليه في جميع الطّوائف والأمم، ولا يذكره أحدٌ بسوء. وهؤلاء المرسلون الكرام قد بلغوا الغاية في الإيمان، والقمّة في الإحسان.

وكلٌ من هؤلاء المرسلين الكرام قد اصطفاه الله تعالى بشيءٍ من النّعم يخصّه.

إنّ نوحاً عليه السّلام، أوّل رسل الله تعالى والأب الثاني للبشريّة قد نادى ربّه عزّ وجلّ بأنّه مغلوبٌ وفي أمسّ الحاجة لنصر الله تعالي له فكان عزّ وجلّ نعم المجيب له. وقد نجّاه عزّ وجلّ وأهله والمؤمنين به وهم قليلٌ من الكرب العظيم بتكذيب قومه له وكرب الطّوفان بالرّكوب في السّفينة. وجعل الله تعالى ذرّيّته عليه السّلام وذرّية المؤمنين الّذين ركبوا السّفينة هم الباقين بعد الطّوفان الّذى أغرق الكافرين الّذين كانوا خارج السّفينة وفيهم أحد أبناء نوح عليه السّلام.

وإنّ إبراهيم عليه السّلام، أبا الأنبياء، الّذى جاء ربّه بقلبٍ سليمٍ من الشّرك قد نجّاه الله تعالى من النّار الّتى ألقاه فيها قومه المشركون في العراق(١) وجعلها عزّ وجلّ برداً وسلاماً على إبراهيم، وجعل الله تعالى القوم الكافرين الأخسرين حجّةً الأسفلين رتبة. وأذن له ربّه جلّ وعلا في الهجرة إلى الشّام، واستجاب دعاءه أن يهبه ولداً من الصّالحين بدلاً من قومه المشركين الّذين هجرهم وهاجر عنهم. وكما بشّره الله تعالى بالغلام بشّره بأنّه سيكون حليماً. وفدى الله تعالى إسماعيل عليه السّلام بكبشٍ معدٍّ للذّبح عظيم، فعملت سكّين إبراهيم عليه السّلام في الكبش وهي الّتى لم تعمل بإذن الله تعالى في إسماعيل عليه السّلام. وهكذا صدّق إبراهيم عليه السّلام رؤياه المناميّة بذبح ولده البكر الكبير إسماعيل عليه السّلام ورضي الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام لمجرد إضجاع إبراهيم عليه السّلام ابنه إسماعيل عليه السّلام للذّبح فتعطّلت السكّين بإذن الله تعالى عن العمل والذّبح.

(١) تهذيب الأسماء، واللّغات للإمام النّووى ١/ ٩٩.

واسم أمّ إسماعيل عليه السّلام هاجَر. وقد وهبتها سارّة لإبراهيم عليه السّلام[1] وبشّر الله تعالى إبراهيم عليه السّلام بابنه إسحاق عليه السّلام نبيّاً من الصّالحين. واسم أمّ إسحاق عليه السّلام سارّة وكانت من أحسن نساء العالمين[2] وبارك الله تعالى على إبراهيم وإسحاق عليهما السّلام. ومن ذرّيّتهما عليهما الصّلاة محسنون مؤمنون وظالمون مشركون.

وإنّ موسى وهارون عليهما السّلام قد منّ الله تعالى عليهما بنعمة النّبوّة. ونجّاهما وقومهما من الكرب العظيم الّذى تمثّل في سوم فرعون وقومه القبط لهم سوء العذاب، وفي مطاردة فرعون وقومه لهم حينما أسرى موسى عليه السّلام بأمر ربّه جلّ وعلا ببنى إسرائيل ليلاً إلى الأرض المباركة في الشّام. ونصر الله تعالى موسى وهارون عليهما السّلام وقومهما على فرعون وجنوده فكانوا هم الغالبين. وآتى الله تعالى موسى وهارون الكتاب الواضح المعانى البليغ البيان، وهو التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل. وهدى الله تعالى موسي وهارون عليهما السّلام طريق الإسلام لله تعالى ربّ العالمين المستقيم.

وإن إلياس عليه السّلام لواحدٌ من رسل الله تعالى الكرام. وسوف يُحْضِر الله تعالى قومه الّذين كذّبوه لعذاب نار جهنّم.

وإنّ لوطاً عليه السّلام لواحدٌ من رسل الله تعالى . اذكر يا محمّد إذ نجّيناه وأهله أجمعين من قلب قرى قوم لوطٍ عليه السّلام رأساً على عقب إلاّ امرأته العجوز المتعاطفة مع قومها فقد كانت من الباقين في العذاب المهلكين. ولوطاً عليه السّلام أحد رسل الله عزّ وجلّ الّذين انتصر لهم بإهلاك مكذّبيهم[3] ولوطٌ عليه السّلام ابن أخى إبراهيم عليه السّلام، وكان إبراهيم عليه السّلام يحبّه حبّاً شديداً[3] وقد خرج لوطٌ عليه السّلام من أرض بابل في العراق مع عمّه إبراهيم

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٠٢.

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٠٢ وانظر فتح البارى ٦/ ٣٨٨ حديث رقم ٣٣٥٨.

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٧٣.

عليه السّلام تابعاً له على دينه مهاجراً معه إلى الشّام ومعهما سارّة امرأة إبراهيم عليه السّلام(١) وقد نزل لوطٌ عليه السّلام الأردنّ فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وما يليها وكانوا كفّاراً يأتون الفواحش ومنها إتيان الذّكران، ما سبقهم بها من أحد من العالمين. وقد أجاب الله تعالى دعاء لوطٍ عليه السّلام فيهم وبعث جبريل وميكائيل وإسرافيل لإهلاكهم فنزلوا على إبراهيم عليه السّلام ضيفاناً ذكراناً مرداً حساناً. ولمّا جاءهم العذاب من السّحر قلب جبريل عليه السّلام قراهم رأسا على عقب(٢).

وإنّ يونس عليه السّلام لواحدٌ من رسل الله تعالى الكرام. وبسبب إصرار قومه على الإعراض عن دعوته عليه السّلام غضب منهم وأنذرهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث إن هم لم يؤمنوا، وترك المدينة دون إذنٍ من ربّه عزّ وجلّ، واتجّه إلى الشّاطيء وركب السّفينة الّتى لعبت بها الأمواج والأعاصير حتّى أوشكت على الغرق، فقرّروا التّخفيف من حملها الثّقيل بإلقاء من وقعت عليه القرعة في عُرْض البحر. وقعت القرعة على يونس عليه السّلام الّذى أرسل الله تعالى إليه حوتاً ضخماً يبتلعه ولا يؤذيه مطلقاً بإذن الله تعالى. لقد نجّى الله تعالى يونس عليه السّلام لأنّه كان من المسبحّين الذّاكرين الله تعالى ذكراً كثيراً المعترفين بظلمهم أنفسهم. ولولا هذه النّعوت في يونس عليه السّلام لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. ألقى الحوت بإذن الله تعالى يونس عليه السّلام بالسّاحل حيث لا شجر ولا بناء وهو عليلٌ كأنّه الطّفل الحديث الولادة الشّديد الحاجة للغذاء والكساء. وأنبت الله تعالى عليه شجرة قرعٍ من سماتها كبر ورقها ونعومته، وعدم استطاعة الذّباب الاقتراب منها، وجودة أغذية ثمره، وصلاحيّته أن يؤكل نيئاً ومطبوخاً. وكلّ هذه الأسباب الّتى هيّأها مسبّب الأسباب كانت بفضل الله تعالى سبباً في عودة صحّة يونس عليه السّلام إليه. أرسل الله تعالى يونس عليه السّلام إلى قومٍ يزيدون على مائة ألف شخص. آمن القوم وصدّقوا يونس عليه السّلام

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٧٢.

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ٧٣.

فمتّعهم الله تعالى في الحياة الدّنيا إلى وقت موتهم.

وهكذا تختصّ سورة الصّافّات المكيّة الكريمة بذكرها بعض مظاهر نعم الله تعالى على كوكبةٍ من المرسلين.

وبذلك يكون لكلّ موضوعٍ من موضوعات سورة الصّافّات الكريمة صفاته الخاصّة به من بين سائر سور القرآن الكريم.

١٠ ـ بناءً على ما سبق يصحّ أن نتبيّن الوحدة الموضوعية للسّورة الكريمة على النّحو التّالى :

تبدأ السّورة الكريمة بالقَسَم بالملائكة الّتى تصفّ نفوسها في عبادة الله تعالى وتزجر السّحاب زجراً وتتلو الوحي وتذكر الله تعالى ذكراً كثيراً. أمّا المقسم عليه فهو توحيد الله تعالى ربّ السّماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق. ويتحوّل السيّاق للحديث عن بعض الأمور العلويّة كتزيين السّماء الدّنيا بزينة الكواكب وحفظها من كلّ شيطانٍ عاتٍ خبيث.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث في الموضوع الرّئيس للسّورة الكريمة وهو البعث بعد الموت الّذى يشمل أربعاً وستّين آيةً كريمة، أي أكثر من ثلث السّورة الكريمة. وقد تبيّن أنّ سورة الصّافّات تختصّ بين سور القرآن الكريم بالحديث المستفيض عن الكافرين بيوم القيامة والمؤمنين به في الحياتين الأولى والآخرة، وعن الحوار بين المكذّبين للبعث والمصدّقين به يوم القيامة، والحوار بين أفراد كلٍّ من الفريقين، الأشقياء منكرى البعث، والسّعداء المؤمنين به، وعذاب الأشقياء في النّار، وثواب المؤمنين في الجنّة.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن كوكبةٍ من الرّسل الكرام. وتختصّ سورة الصّافّات بين سور القرآن الكريم بأنّها تُعْنَى بإبراز مظاهر فضل الله تعالى ونعمه على هذه الكوكبة من رسل الله تعالى الكرام. وهؤلاء المرسلون هم نوحٌ وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس عليهم جميعاً صلوات

الله تعالى وسلامه.

ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث عن الملائكة الكرام الّذين زعم المشركون أنّهم بنات الله تعالى وعبدوهم. وبذلك تكون في نهاية السّورة الكريمة عودةٌ إلى الحديث عمّا ابتدأت به من حديث عن الملائكة وكونهم عبيداً لله تعالى الإله الواحد المعبود. وبذلك تختصّ سورة الصّافّات الكريمة بالحديث في أوّلها وآخرها عن الملائكة الأطهار، إضافةً إلى حديث صدرها عن بعض مظاهر الأجواء العليا من الكواكب والشّهب الّتي تتبع الشّياطين الّذين يريدون استراق السّمع وتدحرهم.

وكما بيّن صدر السّورة الكريمة عبادة الملائكة الأطهار الله تعالى الواحد القهّار عمّق عجز السّورة الكريمة قضيّة التّوحيد على ألسنة الملائكة الأطهار الّذين لكلّ منهم مقامٌ معلومٌ يعبد الله تعالى فيه ويفعل ما يؤمر به، والّذين يصفّون نفوسهم لعبادة الله تعالى، والّذين يسبّحون الله تعالى.

وينعى السّياق على كفّار مكّة الّذين عبدوا الملائكة وأشركوا مع الله تعالى غيره في العبادة وكذّبوا الرّسول الكريم وكفروا بالقرآن العظيم، مع إعلانهم قبل بعثة المصطفى ﷺ أنّهم لو جاءهم كتابٌ من الله تعالى كالتّوراة والإنجيل لكانوا أهدى من إحدى الأمم الّتي أكرمها الله تعالى بكتابٍ سماويّ.

وتجاه هذا الإصرار على الكفر والصّد عن سبيل الله تعالى يكون التثبيت الصّريح من الله تعالى لفؤاد حبيبه ﷺ بأنّ كلمته عزّ وجلّ قد سبقت لعباده المرسلين بأنّهم المنصورون بالحجّة، وبأنّ جنده عزّ وجلّ غالبون باللّسان والسّنان.

وكذلك يكون التّهديد صريحاً للكافرين المعاندين المستهزئين بالعذاب المستعجلين نزوله. وفي ذلك زيادة تثبيتٍ لفؤاد المصطفى ﷺ.

وتختم السّورة الكريمة بتنزيه الله تعالى عن كلّ ما ألحقه الظّالمون وألصقوه بالذّات العليّة ممّا لا يليق بجلالها وعظمتها، وبتأكيد السّلام من الله تعالى والطّمأنينة على المرسلين، وهذه الصّفة مشتركة بين كلّ رسل الله تعالى الكرام، وبتقرير أنّ كلّ الحمد والثّناء لله تعالى ربّ العالمين، الثّقلين الإنس والجنّ وكلّ حيّ وشيء.

وهكذا تختصّ سورة الصّافّات بصفاتٍ معيّنة في أوّلها وآخرها وبشأن موضوعها الرّئيس وهو البعث بعد الموت، وحديثها عن كوكبة من رسل الله تعالى الكرام.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرّمة
قبيل مغرب يوم الخميس ٢٩/ ٩/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٦/ ١/ ٢٠٠٠م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

ثالثاً

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا
أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم
مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ
بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ
نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤) وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى
ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٧) وَٱذْكُرْ
إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ
(٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)
۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨)
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ (٥٩)
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٦٠)
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ (٦١)

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ
﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

بين يدي التفسير

(١)

« لكفّار مكّة المستهزئين خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، كالكفّار السّابقين»

الآيات (١ - ١٦)

تبدأ سورة ص المكّيّة الكريمة بالحرف: ص. ومن العلماء من قال في تفسيره: الله أعلم بمراده به. ومنهم من اجتهد في محاولة معرفة معنى الحروف المقطّعة في أوائل السّور. ومِنْ أرجح الآراء الرّأي القائل بأنّها امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم. إنّ كلاً من كلمات القرآن الكريم والكلمات على ألسنة العرب تتألّف من هذه الحروف، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه. ثمّ يأتى الحديث عن القرآن الكريم. جرياً على عادة كلّ السّور الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة. وهو يأتى هنا على الفور.

يقسم الحقّ جلّ وعلا بالقرآن الكريم ذي القدرة العظيمة على التّذكير وعلى كونه السّبب بإذن الله تعالى في شرف كلّ من اتّصل منه بسببٍ وعزّته. وجواب القسم محذوف. ويصحّ أن يكون: ﴿إنّك لمن المرسلين﴾ وهو الجواب المذكور في الآية الكريمة الثّالثة من سورة ﴿يس﴾ قال تعالى: ﴿يس. والقرآن الحكيم. إنّك لمن المرسلين﴾ الحقيقة أنّ كفّار مكّة في حميّةٍ واستكبارٍ عن إفراد الله تعالى بالعبادة، وفي شقاقٍ ومخالفة للرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، محمّد بن عبدالله ﷺ. وليس قومكَ يا محمّدُ بِدْعاً من الأمم وأوّلَ أمّةٍ تكذّب رسول الله تعالى إليها، فيأخذها الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر. لقد أهلكنا كثيراً من الأمم السّابقة المكذّبة، وحينما نزل العذاب بساحتهم نادوا بالتّوبة، وجأروا بالاستغفار كي يُرْفَعَ عنهم الهلاك، وليس الوقت وقت فِرارٍ من أليم العذاب بالتّوبة النّصوح، والاستغفار من الذّنوب.

وعجِب كفّار مكّة أن جاءهم منذرٌ منهم وبُعِث فيهم ابن مدينتهم البارّ محمّد

ابن عبدالله ﷺ. وقال الكافرون هذا الّذى يزعم أنّ الله تعالى أرسله وأوحى إليه القرآن الكريم ساحرٌ لديه قوىً خفيةٌ شرّيرةٌ يفرّق بها بين المرء وبين أعزّ أحبّائه، كذّابٌ افترى القرآن من ذات نفسه ونسبه إلى الله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾(١) وسأل كفّار مكّة في إنكار: أجعل محمّدٌ الآلهة إلها واحداً. إنّ هذا الادّعاء لأعجب العجب، إذ كيف يسع هذا العالم كلّه إلهٌ واحد! وبعد أن سمع الملأ من قريش من محمّد ﷺ، بحضرة عمّه أبى طالب الّذى استنجدوا به، ازدادوا نفوراً حينما دعاهم عليه الصّلاة والسّلام إلى قول: لا إله إلاّ الله، كي يملكوا العرب ويسودوا العجم، وازدادوا عناداً واستكبارا. لقد انطلق الملأ من قريش من مجلس أبي طالب، وقال بعضهم لبعض: استمرّوا على دين آبائكم، واصبروا على عبادة آلهتكم من الأصنام والأوثان. إنّ هذا التّوحيد الّذى يدعوكم إليه محمّدٌ لشيءٌ يريد به محمّدٌ المجد لنفسه والسّيادة عليكم. ما سمعنا بأنّه لا إله إلاّ الله في النّصرانيّة الملّة الأخيرة. ما هذا الّذى ينادى به محمّد من إفراد الله بالعبادة إلاّ كذبٌ اختلقه محمّدٌ وافتراه. أأُنْزِل عليه القرآن من بيننا ونحن الملأ من قريشٍ وأشرافُها، وليس محمّدٌ بالرّجل الثريّ! الحقيقة أنّ كفّار مكّة في شكٍّ من كون القرآن الكريم كلام ربّ العالمين، والحقيقة أنّهم لمّا يذوقوا عذاب الله تعالى، ولو أنّ العذاب حلّ بهم وأعلنوا التّوبةَ لقيل لهم ما قيل للكافرين السّابقين: ﴿لات حين مناص﴾.

أم أنّ عند كفّار مكّة خزائن رحمة ربّك العزيز في ملكه الوهّاب من فضله مَنْ يشاء مِنْ خلقه، ومِنْ ثَمَّ هم يعطون من شاءوا ويحرمون من أرادوا. أم أنّ لهم ملك السّماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا إذن في أسباب السّماوات كي يمنعوا الوحي عن محمّد ﷺ. إنّ كفّار مكّة على الحقيقة جندٌ حقيرٌ مهزومٌ يوم بدر، ومِنْ جنس الأمم المتحزّبة على الكفر المتعاونة على الإثم والعدوان. وإنّ مصير كفّار مكّة إن لم يتوبوا إلى الله تعالى سيكون كمصير الكافرين من قوم نوحٍ وهودٍ وموسى عليهم السّلام وقد بلغ فرعون موسى عليه السّلام الغاية في البطش

(١) سورة الكهف ٥.

والفساد. وكمصير الكافرين من قوم صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم السّلام المستهزئين، الّذين تحالفوا على الباطل ضدّ رسل الله تعالى إليهم.

إنّ كلّ هؤلاء قد كذّبوا رسل الله تعالى فوجب عقابهم، ولزم عذابهم. وهل ينتظر كفّار مكّة إلاّ صيحةً واحدة يطلقها إسرافيل عليه السّلام فيموت الخلائق إيذاناً بيوم القيامة، تلك الصّيحة الدّائمة الّتي ليس لها انقطاعٌ ولا فتور. وعلى سبيل الاستهزاء استعجل كفّار مكّة العذاب قبل يوم الحساب!

ممّا سبقّ يتبيّن أنّ صدر سورة ص المكّيّة الكريمة نزل في مناسبةٍ معيّنة، وذلك حينما حانت وفاة أبي طالبٍ عمّ النّبيّ ﷺ وخشيت قريش أن يذهب الأمر من يدها بوفاة أبي طالب فحرصت على أن يأخذ أبو طالب للنّبيّ ﷺ من قريش، وأن يأخذ لها منه ﷺ. وحينما طلب ﷺ من قريشٍ أن يقولوا: لا إله إلاّ الله استنكفوا واستكبروا وعاندوا واستهزءوا. وقد قال النّبيّ ﷺ: «ما نالت منّي قريشٌ شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب»(١) وما أبلغ دور الآيات الكريمات في التّسلية وتثبيت فؤاده ﷺ.

(٢)

«لك يا محمّد في الصّبر أسوةٌ حسنةٌ في كوكبةٍ من النّبيّين الكرام، عليهم من الله تعالى أزكى الصّلاة وأتمّ السّلام»

الآيات (١٧-٤٨)

اصبر يا محمّد على ما يقول كفّار مكّة من هراء وما يصدر عنهم من استهزاء، واذكر صبر عبدنا داود عليه السّلام ذى القوّة في طاعة الله تعالى. إنّه كثير الأوبة إلى الله تعالى والرّجوع بالتّوبة. إنّ نعمنا على عبدنا داود عليه

(١) السّيرة النّبوية لابن هشام ١/٤١٦ حلبي.

السّلام لا يأتى عليها الحصر إضافةً إلى نعمة النّبوّة الّتى هي محض فضل منّا. ومن نعمنا على داود عليه السّلام أنّا أكرمناه بالزّبور الكتاب الموحى إليه، وأنعمنا عليه بالصّوت الجميل الّذى لم نعط أحداً مثله. وقد سخّر داود عليه السّلام نعمة الصّوت الجميل عليه في ترتيل الزّبور وفي التّسبيح بحمد الله تعالى. إنّا سخّرنا الجبال مع داود عليه السّلام يسبّحن حينما يسبّح بحمد الله تعالى بالعشيّ ووقت الأصيل. ووقت شروق الشّمس والضّحى. وسخّرنا الطّير تسبّح معه بحمد الله تعالى، وتُحبَس في الهواء افتتاناً بصوته الجميل وهو يسبّح بحمد الله تعالى ويتلو الزّبور، وتجتمع فوق رأسه صافّاتٍ أجنحتهنّ ويقبضن. إنّ كلاًّ من الجبال والطّير رجّاعٌ لطاعة داود عليه السّلام وأمرهِ بالتّسبيح بحمد الله تعالى.

وقد قوّينا ملك داود عليه السّلام بالحرس والجنود وما إلى ذلك ممّا يؤكّد هيبة ملكه، وآتيناه الرّأي الحصيف والعقل الرّاجح في النّظر في الأمور وتدبّر العواقب، كما آتيناه الكلام البليغ والبيان الشّافي.

وهل أتاك أيهّا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم نبأ الخصمين من الملائكة الّلذين تسلّقا سور المحراب من المسجد الّذى انقطع فيه داود عليه السّلام لعبادة الله تعالى، والّلذين منعهما الحرس من الدّخول على داود عليه السّلام لأنّ الوقت ليس الوقت الّذى خصّصه عليه السّلام للقضاء إنّما للعبادة. لقد دخل الملكان على داود عليه السّلام المحراب ففزع منهما وخاف أن تكون هيبة ملكه قد زالت فتمكّن الملكان وهما في صورة شخصين من تسوّر المحراب والدّخول عليه. قال الملكان لداود عليه السّلام لا تخف منّا، نحن خصمان وشخصان بغى واحدٌ منّا على الآخر، فاقض بيننا بالعدل، ولا تمل بحكمك إلى أحدنا، وأرشدنا إلى الطريق القويم والصّراط المستقيم. قال أحدهما إنّ هذا الشّخص من أهل ملّتى وعلى دينى، له تسعٌ وتسعون من أنثى الضّأن، ولي واحدةٌ فقط، فقال لي اجعلنى كفيلاً على نعجتك الواحدة، وانزل لي عنها، كي يكون لي تمام مائة نعجة! لقد غلبنى أخى هذا ببيانه، وقهرني بسلطانه. لم يتح داود عليه السّلام بإذن الله تعالى للخصم الآخر أن يبيّن وجهةنظره في القضيّة، بل بادر إلى إصدار الحكم قبل

استكمال حيثيّاته. قال: لقد ظلمك أخوك بسؤاله ضمّ نعجتك الواحدةإلى نعاجه التّسع والتّسعين. وإنّ كثيراً من الشّركاء يظلم بعضهم بعضاً، إلاّ الّذين آمنوا بالله تعالى واتّبعوا رسوله والنّور الّذى أنزله الله تعالى معه، وعملوا الصّالحات. وما أقل هذا الفريق المنصف من الشّركاء.

فطن داود عليه السّلام إلى أنّه أصدر حكماً قبل استكمال حيثيّاته، وأيقن أنّ الله تعالى قد ابتلاه وامتحنه، فبادر إلى استغفار ربّه جلّ وعلا الّذى ربّاه بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، وخرّ ساقطاً على وجهه ساجداً لله تعالى، ورجع إلى ربّه عزّ وجلّ بالتّوبة النّصوح والعمل الصّالح.

غفر الله تعالى الرّءوف الرّحيم لداود عليه السّلام ذلك التّجاوز. وإنّ له عليه السّلام عند الله تعالى لقربةً ومنزلةً رفيعة في الأولى، وحسن مآبٍ ومرجعٍ في الآخرة.

نادى الحقّ جلّ وعلا داود عليه السّلام باسمه تطميناً له عليه السّلام، وأرشده إلى عملٍ من أهمّ أعمال الخليفة أو الحاكم الشّرعيّ، وهو الحكم والقضاء بين النّاس، وبيّن له عليه السّلام أهمّ صفات القاضى الفاضل العادل.

نادى الحقّ جلّ وعلا داود عليه السّلام وقال له: يا داود إنّا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكماً بين أهلها، فاقض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكماً بين أهلها، فاقض بين النّاس بالعدل، واحكم بينهم بالحقّ، ولا تتّبع هوى النّفس فيضلّك عن السّبيل الموصل إلى مرضاة الله تعالى، ويرمى بك في مهاوى الرّدى. إنّ الّذين يضلّون عن السّبيل الّذي بيّن الحقّ جلّ وعلا معالمه، ويتّبعون السّبل المتفرّقة الصّارفة عن سبيل الله تعالى، لهم عذابٌ شديدٌ في الأولى والآخرة، بسبب نسيانهم يوم الحساب، وترك العمل ليوم القيامة الّذى لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلاّ من أتى الله تعالى بقلبٍ سليم.

لم يستفد كفّار مكّة من وجود المصطفى ﷺ بين ظَهْرانَيْهِمْ، ومن آيات الكتاب العزيز البيّنات، ومن آيات الكتاب المفتوح لهذا الكون من سماءٍ مرفوعة، وأرضٍ موضوعة، ومن مخلوقاتٍ بينهما لا يكاد يأتى عليها الحصر دالّةٍ على

القدرة المطلقة للذّات العليّة. وها هو ذا السّياق في آيات كريمات ثلاث تعقيبيّات يبيّن وجه الحقّ لكفّار مكّة وكلّ الكافرين، بشأن آيات الله تعالى الكونيّة، وبشأن آيات الكتاب العزيز، وبشأن الّذين انتفعوا من هذه الآيات والّذين لم ينتفعوا. وما أقلّ الّذين انتفعوا من أهل مكّة من هذه الآيات وما أكثر الّذين لم ينتفعوا فلزم التّنبيه للخطر.

إنّ الله سبحانه وتعالى ما خلق السّماء والأرض وما بينهما عبثاً ولعباً. ذلك ظنّ الّذين كفروا واعتقادهم، فويلٌ للّذين كفروا من عذاب النّار، وقبحٌ لهم لإيثارهم الفانية على الباقية. أمّا المؤمنون فإنّهم يتفكّرون في خلق السّماوات والأرض وما بينهما ويعلمون أنّ الله تعالى إنّما خلق ذلك بالحقّ ولغاية سامية، هي أن يستدلّ الخلق بهذا الملك العظيم على الخالق سبحانه، ويفردوه عزّ وجلّ بالعبادة. إنّ لهؤلاء المؤمنين المتّقين الحياة الطّيبة فى الأولى والآخرة.

وبناءً على الإيمان والكفر، الصّلاح والفساد، التّقوى والفجور لا يسوّى الحقّ جلّ وعلا بين الفريقين. إنّ من أعرض عن هدي الله تعالى فإنّه له في الحياة الأولى معيشةً ضيقةً وحياةً غير طيّبة، ويحشره عزّ وجلّ يوم القيامة أعمى البصر. إنّ كلّ ذلك للكافرين في مقابل الحياة الطّيّبة للمؤمنين.

وإنّما يعرف النّاس أجمعون طريق الهدى المستقيم عن طريق هذا الكتاب العزيز المبارك، الّذى أنزله الله تعالى للنّاس كي يتدبّروا ويتأمّلوا آياته البيّنات، وكي تمتلىء قلوب أولى العقول الرّاجحة بخشية الله تعالى وكي يتذكّر أولو الألباب، ويتّعظ أولو النُّهى.

وهكذا يجمع المؤمنون المتّقون بين العقل الرّاجح والقلب السّليم.

وممّا سبق يتبيّن أنّ الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن داود عليه السّلام تشير إلى فتنة الله تعالى له بالخصمين، كما تشير إلى أهمّ مقوّمات القضاء بالعدل، والحكم بالحقّ، بإذن الله تعالى، هذا إلى القوّة الّتي منحه الله تعالى إيّاها في مجال العبادة والصّبر.

وقد وهب الله تعالى لداود عليه السّلام ابنه سليمان عليه السّلام الّذى خصّه

الله تعالى بالنّبوّة والعلم والحكمة من بين بنيه الاثني عشر. نعْمَ العبدُ سليمان عليه السّلام، إنّه كثير الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة والعمل الصّالح. اُذْكُرْ يا محمّد إذ عُرِض على سليمان عليه السّلام بالعشيّ بعد صلاة العصر إلى غروب الشّمس الخيل الأصيلة الّتى تقف على ثلاث قوائم وعلى طرف حافر اليد الرّابعة دليلاً على نُبْلها والخيل السّريعة العدو الواسعة الخطو. ظلّ عليه السّلام مشغولاً باستعراض الخيل الّتى كان يعدّ ها للجهاد في سبيل الله تعالى حتّى غربت الشّمس وفاتته صلاة العصر. ندم سليمان عليه السّلام على تقصيره في جنب الله تعالى وقال: إنّى آثرت حبّ الخْيل الّتى شغلتنى عن ذكر ربيّ عزّ وجلّ حتّى توارت الشّمس بالحجاب، واستترت وراء الأفق، وذهب النّهار وجاء اللّيل. ردّوا الخيل الّتى شغلتنى عن صلاة العصر إليّ فأقبل يقطع بالسّيف سوقها وأعناقها وتصدّق بلحمها، فعوّضه الله تعالى الرّيح خيراً من الخيل وأسرع.

ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيّ ملكه جَسَداً هو شِقّ إنسان وَضَعَتْه القابلة هنالك بعد ولادته. كان سليمان عليه السّلام قد نوى أن يطوف إحدى اللّيالي على نسائه فتحمل كلّ واحدة منهنّ بولدٍ يقاتل في سبيل الله تعالى، ولم يقل سليمان عليه السّلام: إن شاء الله. فلم تحمل سوى واحدة من نسائه بذلك الشقّ وهو الجسد الّذى أشارت إليه الآية الكريمة. والله تعالى أعلم. أدرك سليمان عليه السّلام أنّه لم يستثن في يمينه حينما قال: لأطوفنّ اللّيلة على سبعين امرأة، بمعنى أنّه لم يقل: إن شاء الله. إنّ من قال إن شاء الله ثنى ما قاله بمشيئة الله تعالى غَيْره وكفّه وردّه[1] حينما أدرك سليمان عليه السّلام أنّه لم يستثن رجع إلى ربّه جلّ وعلا بالتّوبة والاستغفار واستباق الخيرات وعمل الطّاعات.

دعا سليمان عليه السّلام ربّه عزّ وجل قائلاً: ربّ اغفر لي ذنبي وهب لي فضلاًمنك ملكاً لا يكون لأحد من بعدى، كي أسخّره في الجهاد في سبيلك ونشر دينك. إنّك أنت الوهّاب الّذى يرزق من يشاء بغير حساب. استجاب الله تعالى دعاء سليمان عليه السّلام فغفر له ذنبه، ووهب له ملكاً لا يكون لأحدٍ من بعده

(١) لسان العرب: «ثنى».

من البشر، وسخّر له الرّيح تجرى بأمره رخاءً وعاصفةً حيث أراد عليه السّلام، وسخّر له شياطين الجنّ الّذين يبنون له وينحتون ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسيات، والّذين يغوصون في أعماق البحار لاستخراج اللّؤلؤ وأنواع الحلىّ. أمّا عصاة الشياطين فقد مكّنه الله تعالى منهم فشدّ وثاقهم بالقيود والسّلاسل والأغلال والأصفاد.

قال الحقّ جلّ وعلا لسليمان عليه السّلام العبد النّبيّ المصطفى الّذى لا يجهل حقيقة قدره والّذى يحرص على أن يهضم نفسه تواضعاً لله تعالى: هذا عطاؤنا من المُلْك والسّلطان، فأعط يا سليمان منه ما تراه يستحقّ الإعطاء، وامنع من يستحقّ المنع، بغير حساب لك وأنت الّذى ترى بنور ربّك عزّ وجل. وإنّ لسليمان عليه السّلام عندنا لمنزلةً رفيعةً في الأولى، وحُسْن مصيرٍ في الآخرة.

وليس بخاف ابتلاء الله تعالى سليمان عليه السّلام وصبره عليه السّلام على الابتلاء وعلى طاعة الله تعالى. وإنّما يتجلّى الصّبر على حقيقته وقت الشّدّة وساعة المحنة. وقد وفّق الله تعالى سليمان عليه السّلام في كلّ مجالات الخير، وبخاصّة في مجال الصّبر. كما وفّق أباه وسائر النّبيّين في كلّ هذه المجالات. ويُضْرَب المثل في الصّبر بأيّوب عليه السّلام الّذى يتحوّل السّياق إلى الحديث عنه.

واذكر يا محمّد عبدنا أيّوب عليه السّلام حين نادى ربّه عزّ وجلّ على جهة التأدّب: يا ربّى إنّى مسّني الشّيطان الرّجيم بضُرٍّ في جسدى، وبعذاب في أهلى ومالى. استجاب الحقّ جلّ وعلا الّذى يجيب المضطرّ إذا دعاه دعوة أيّوب عليه السّلام وقال له حين أراد له العفو والعافية: اضرب برجلك الأرض تنبع عين ماء. وقال الحقّ جلّ وعلا لأيوب عليه السّلام هذا ماء تغتسل به فيبرأ ظاهرك، وتشرب منه فيبرأ باطنك، فبرىء عليه السّلام. ووهب الله تعالى لأيّوب عليه السّلام أهله، ربّما بإحيائهم، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، كما وهبه مثلهم فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة، رحمةً منه جل وعلا، وذكرى لأولى العقول الرّاجحة، والقلوب السّليمة الطّيّبة. وخذ يا أيّوب بقبضة يدك ما صحّ لك وتيسّر من حشيش الأرض فاضرب به زوجك الوفيّة ضربةً واحدةً وبرّ بيمينك حينما أقْسَمْتَ لتضربنّها مائة ضربة بسبب إبطائها عليك وقتاً من الأوقات وأنت في أشدّ المرض. وهكذا شملت رحمة الله تعالى الواسعة الزّوجة الوفيّة كما شملت زوجها

النّبيّ المصطفى المختار أيّوب عليه السّلام. إنّ الحقّ جلّ وعلا جعل أيّوب عليه السّلام صابراً على البلاء حتّى لم يبق منه سليماً سوى قلبه وعقله ولسانه فدعا ربّه جلّ وعلا أن يكشف عنه السّوء وقد خشي لو أصيبت بقيّة الأعضاء ألاّ يتمكّن من ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً. نعم العبد أيّوب عليه السّلام. إنّه كثير الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة النّصوح وعمل الصّالحات.

واذكر يا محمّد عبادنا إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السّلام. إنّهم أصحاب قوّة على عبادة الله تعالى وصبر عليها بإذن الله تعالى، وأصحاب بصائر نيّرة. إنّ الله سبحانه وتعالى خصّهم بخاصّة إذ جعلهم خالصي الاهتمام بذكر الدّار الآخرة. فهم يزهّدون الآخرين في الدّنيا ويحبّبونهم في الآخرة، وهم يزهدون في الدّنيا ويعملون للآخرة. وإنّ هؤلاء النّبيّين من الّذين اصطفاهم الله تعالى لإخلاص العبادة له جلّ وعلا دون سواه ففعلوا، وإنّهم من الأخيار الّذين استبقوا الخيرات فاختارهم الله تعالى لحمل الرّسالة وأداء الأمانة، فكانوا بحقّ خير النّاس.

واذكر يا محمّد إسماعيل بن إبراهيم، واليسع وذا الكِفْل، عليهم أزكى الصّلاة وأتمّ السّلام. إنّهم كسابقيهم من الأخيار الّذين اختارهم الله تعالى بسبب استباقهم الخيرات لأداء الأمانة فكانوا خير المبلّغين النّاصحين الأمناء.

(٣)

« ثواب المتّقين في الجنّة عظيم، وعذاب الطّاغين في النّار أليم، وتخاصم أهل النّار فيها»

الآيات (٤٩-٦٤)

هذا القرآن الكريم ذكرٌ لك يا محمّد ولقومك وتذكيرٌ وموعظةٌ وشرف. وإنّ

لّلذين اتّقوا الله تعالى لَحُسْنَ مصير. جنّات إقامة دائمة، ومفتّحةً لهم أبوابها دائماً. وهم يتّكئون فيها دليل التّمكّن والاطمئنان، يدعون فيها بفاكهةٍ وشرابٍ كثيرين دليل وجود ما يسبق التّفكّه بالفاكهة والتّلذّذ بالشّراب من طعامٍ وشرابٍ أساسين. ويتمّ النّعيم بالزّوجات الجميلات اللّاتى يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ رضاً وسعادةً بهم، والمتساويات في السّنّ. هذا ما توعدون من الكرامة ليوم الحساب والجزاء. إنّ هذا النّعيم المقيم لرزقنا ماله انتهاءٌ ولا انقطاع.

هذا النّعيم المقيم للمتّقين. وإنّ للطّاغين الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى لشرّ مصير. جهنّم يدخلونها ويحترقون بنارها فبئس الفراش جهنّم. هذا ماءٌ شديد الحرارة فليذوقوه، وهذا صديد أهل النّار فليشربوه. ولهم عذابٌ آخر من جنس الماء الشّديد الحرارة أنواعٌ وألوان. هذا فريقٌ آخر مقتحمٌ معكم أعماق النّار، قالوا لا مرحباً بهم ولا اتّسعت لهم الأماكن والمنازل. إنّهم داخلو النّار كما دخلناها. قال الأتباع للطّاغين: بل أنتم لا مرحباً بكم ولا اتّسعت لكم الأماكن والمنازل. أنتم قدّمتم لنا هذا المكان وهذا العذاب بإضلالكم لنا. فبئس المكان يستقرّ فيه جهنّم. وقالوا يا ربّنا من قدّم لنا هذا العذاب فزده عذاباً ضِعْفاً في النّار بسبب كفرهم وصدّهم عن السّبيل.

وقال الطّغاة المتّبوعون : مالنا لا نرى رجالاً من فقراء المؤمنين وضعفائهم كنّا نعدّهم في الدّنيا مِنْ شِرارنا.

ما أعمى بصيرتنا وأشدّ غباءنا وأعظم غفلتنا. أصحيحٌ اتّخذنا أولئك المؤمنين موضع سخريتنا واستهزائنا! لقد كنّا أوّل من يستحقّ أن يُسْخر به ويستهزأ، وأولى من يستحقّ أن يُسْتَغْرَبَ من غفلته ويُتَعجّب.

مالنا لا نرى معنا في النّار رجالاً من فقراء المؤمنين وضعفائهم كنّا نعدّهم في الدّنيا من أشرارنا؟ أم مالت عنهم أبصارنا ولهذا نحن لا نراهم مع أنّهم معنا في النّار. إنّ تخاصم أهل النّار على النّحو المذكور حقٌّ لا ريب فيه وكائنٌ لا محالة.

وهكذا تتحدّث آيات هذا القِسْم من السّورة الكريمة عن ثواب المؤمنين في الآخرة وعذاب الكافرين، ويتّسم الحوار بين أهل النّار من التّابعين والمتبوعين

بالحرارة ويأخذ طابع الخصام.

وهذا الخصام ممّا تختصّ به سورة ص بشأن الحوار بين أهل النّار. واللّطيف في الأمر أنّ هذا الخصام المستفاد من قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إنّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النّار﴾ يشتمل على حرف الصّاد الّذى وجدناه في صفة الصّبر الّذى يتّصف به النّبيّون عليهم السّلام والّذى نصّ عليه في القول خطاباً للنّبيّ ﷺ في الآية الكريمة السّابعة عشرة: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب﴾ ونصّ عليه في الآية الكريمة الرّابعة والأربعين الّتى تتحدّث عن أيّوب عليه السّلام. قال تعالى: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تَحْنَث. إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب﴾.

وليس بخافٍ أنّ السّورة الكريمة تبدأ بالحرف: ﴿ص﴾ وكأنّ الخصام الدّالّ على نفاد الصّبر من صفات أهل النّار في حوارهم، وكأنّ الصّبر القاسم المشترك بين الكوكبة من النّبيّين في السّورة الكريمة، وعلى رأسهم إمامهم محمّد بن عبدالله ﷺ، وزعيم أولى العزم من الرّسل المضروب بهم المثل في الصّبر.

ويعود السّياق في نهاية السّورة الكريمة إلى الحديث في المعاني الّتى تحدّث فيها أوّل السّورة الكريمة الّذى نزل في مناسبةٍ معيّنة هي حرص كفّار قريش على أن يأخذ أبو طالب عمّ النّبيّ ﷺ لهم منه عليه الصّلاة والسّلام وأن يأخذ لهم قبل أن يموت أبو طالب الّذى كان مريضاً آنذاك.

(٤)

«القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين والمشتمل على الكثير من أمور الغيب ذكرٌ للعالمين»

الآيات (٦٥-٨٨)

قل يا محمّد لكفّار مكّة إنّما أنا منذرٌ لكم، إن لم تؤمنوا، من العذاب

الشّديد يوم القيامة، وما مِنْ إله مستحقٌّ أن يُعْبَدَ إلاّ الله تعالى الواحد القهّار لخلقه. إنّه خالق السّماوات والأرض وما بينهما ومدبّر كلّ شيءٍ المنتقم من الكفّار، الغفّار لمن تاب وأناب. وهذا الإله الواحد هو الّذى أوحى لمحمّدٍ ﷺ بالقرآن الكريم، آخر الكتب السّماويّة وأشرفها.

قل يا محمّد لكفّار مكّة هذا القرآن الكريم نبأٌ عظيم، وخبرٌ جدٌّ خطير، أنتم عنه معرضون ومنصرفون، وله كارهون ومبغضون، لأنّكم انسقتم وراء الهوى، وعطّلتم منكم القوى. إنّكم لو تدبّرتم القرآن الكريم لانتهيتم حتماً إلى أنّه كلام ربّ العالمين. لقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من أمور الغيب، منها ما مضى وانقضى، ومنها ما سوف يتحقّق بإذن الله تعالى في المستقبل القريب أو البعيد. وفي كلٍّ منهما الدّليل على أنّ القرآن الكريم موحىً به من ربّ العالمين.

إنّ من الغيب الّذى مضى وانقضى ما جاء في القرآن الكريم من ملابسات خلق آدم عليه السّلام. إنىّ ما كان لي مِنْ علمٍ بالملائكة إذ يختصمون في شأن آدم عليه السّلام حينما شاورهم الحقّ جلّ وعلا في خلقه. إنّى ما يوحَى إلىّ علم ما لا علم لي به من نحو اختصام الملائكة في أمر آدم عليه السّلام إلاّ لأنّى إنّما أنا نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد إن لم تؤمنوا وتعملوا صالحاً. ما كان لي من علمٍ بالملائكة إذ يختصمون إذ قال ربّك يا محمّد لهم إنّى خالقٌ بشراً من طين. إنّه آدم عليه السّلام أبو البشر. فإذا سوّيته في أحسن تقويم، وجعلته في أجمل صورة، ونفخت فيه من روحى، فبادروا إلى السّجود له سجود تحيّةٍ وتكريم.

خلق الحقّ جلّ وعلا آدم عليه السّلام في أحسن تقويم، فسجد الملائكة كلهم من دون استثناء، إلاّ إبليس اللّعين الّذى كان من الجنّ فخرج عن طاعة ربّه عزّ وجلّ ولم يكن من السّاجدين لآدم عليه السّلام سجود احترامٍ وإعظام. كان اللّعين من المتكبّرين في أنفسهم المتعالين على الآخرين، وممّن كفر في علم الله تعالى السّابق فأنكر ما كان يلزمه من الإذعان لله تعالى بالطّاعة.

قال الحقّ جلّ وعلا الّذى يعلم ما توسوس به نفس كلّ مخلوق: يا إبليس ما الّذى منعك مِنْ أن تسجد لآدم الّذى خلقته بيديّ؟ أستكبرت في نفسك أم كنت

من المتعالين عليه؟ قال اللّعين: أنا خيرٌ من آدم وأفضل. خلقتنى ياربىّ من نار، وخلقته من طين، والنّار أسمى من الطين، وتحرقه، والطّين لا يسمو سموّ النّار.

قال الحقّ جلّ وعلا: فاخرج يا إبليس من الجنّة، فإنّك مطرودٌ من منازل الملأ الأعلى. وإنّ عليك لعنتى وطردي لك من رحمتى إلى يوم الجزاء. قال اللّعين يا ربّى فأخّرنى إلى يوم تبعث الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء، حينما ينفخ إسرافيل عليه السّلام النّفخة الثّانية في الصّور فيحيا الخلائق بإذنك ياربّى. لقد أراد اللّعين بهذا التّعيين أن يضمن الخلود. قال الحقّ جلّ وعلا فإنّك يا إبليس من المؤخّرين. إلى يوم الوقت المعلوم وهو وقت النّفخ في الصّور النّفخة الأولى الّتى يموت بسببها الخلائق بإذن الله تعالى إلاّ من شاء ربّك.

قال اللّعين للحقّ عزّ وجل أقسم بعزّتك وقهرك ما دونك من خلقك لأضلّنّ جميع بنى آدم ولأصرفنّهم عن سواء السّبيل، إلاّ عبادك منهم الّذين أخلصتهم لعبادتك وأخلصوا العبادة لك.

قال الحقّ جلّ وعلا: فالحقّ منّى وأقول الحقّ: لأملأنّ جهنّم منك ومن ذرّيّتك وممّن تبعك منهم أجمعين.

وهكذا كان من الشّيطان الرّجيم استكبارٌ وتعالٍ على آدم عليه السّلام وعصيانٌ لله تعالى. وكذلك كان من كفّار مكّة استنكافٌ عن إفراد الله تعالى بالعبادة، وتعالٍ على المصطفى ﷺ، واستكبارٌ في أنفسهم. وبذلك يكون وجه الشّبه كبيراً بين كفّار مكّة وبين الشّيطان الرّجيم(١).

والآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات من السّورة تفصّل معنى الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة. إنّ الحقّ جلّ وعلا يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة: ما أسألكم من أجرٍ على هذا القرآن الكريم الّذى أتلوه عليكم، وأبيّن لكم معناه، وأدعوكم إلى الاهتداء بنوره إلى الطّريق القويم. وما أنا بالّذى افتريت القرآن الكريم وتجشّمت الصّعاب واستعذبت العذاب في تأليفه. إنّ القرآن الكريم ليس إلاّ عظةٌ للعالمين، الإنس والجنّ المكلّفين. ولتعلمنّ يا كفّار مكّة ويا أيها

(١) انظر هنا تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١٩.

الكافرون في كلّ زمانٍ ومكان صدق القرآن الكريم في كلّ ما أنبأ به، وستدركون في المستقبل القريب أو البعيد صدق هذا الكتاب العزيز في كلّ ما تنبّأ به من غيوب.

إنّ صدق القرآن الكريم في كلّ ما تنبّأ به من غيوبٍ تتعلّق بالمستقبل ينبغي أن يُتّخذ دليلاً على ما أنبأ به من غيوبٍ تتعلّق بالماضي كخلق آدم عليه السّلام وملابسات ذلك الخلق، وكقصص النّبيّين السّابقين، ممّا جاء في هذه السّورة المكّيّة الكريمة، سورة ﴿ص﴾ وفي سائر القرآن الكريم.

التّفسير

(١)

« لكفّـــار مكّـــة المستهزئين
خـــزي الـــدّنيـــا
وعـــذاب الآخـــرة،
كالكفّار السّابقين»
الآيات (١ ـ ١٦)

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾

ذى الذّكرذى التّذكير، ذكّركم الله به(١) وذى الشّرف، ونظيرتها(٢) : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم، أفلا تعقلون﴾(٣).

بشأن القول : ﴿ص﴾ تقدّم الكلام عن الحروف المقطّعة في أوائل سور القرآن الكريم في أثناء الحديث عن : ﴿الم﴾ أوّل سورة البقرة. ومن العلماء من قال بشأن هذه الحروف : الله أعلم بمراده به. ومن العلماء من ذهب إلى أنّ هذه الحروف المقطّعة امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم. إنّ كلاً من كلمات القرآن الكريم والكلمات على ألسنة العرب الّذين نزل القرآن بلسانهم، والّذين تحدّاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره، يتألّف من حروف الهجاء ذاتها، ولكنّ القرآن الكريم نسيجٌ وَحْدِه.

ويُقْسم الحقّ جلّ وعلا بالقرآن الكريم الّذى فيه تذكيرٌ وبلاغٌ وموعظةٌ لكلّ من تأمّله وتدبّره، والّذى فيه الشّرف كلّ الشّرف بالاهتداء بهديه، والعزُّ كلُّ العزّ.

ويلاحظ أنّه يأتى بعد الحرف: ﴿ص﴾ ذكر القرآن الكريم، جرياً على عادة كلّ السّور الكريمة الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة. وجواب القَسَم محذوفٌ تقديره: إنّك لمن المرسلين، فهو نظير أوّل سورة يس(٤).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٥.

(٢) سورة الأنبياء ١٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢٣/ ٧٥..

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٧٩.